الرسول والمستشرقون

للدكتور جمال الدين الرمادى

قوبل الرسول الكريم فى صدر دعوته بكثير من الإعراض وكثير من النفور والإنكار ، قوبل بكثير من الإيذاء وانقلب عليه سفهاء القوم يسبونه ويشتمونه ويرمونه بقوارص الكلم وزواجر اللفظ دون تردد ودون إحجام ودون مراعاة ولا هيبة لمقامه الكريم ، ولكن يشاء الله أن يعلى كلمة الحق وينصر رسوله المختار ، ويجعل كلمة الذين آمنوا العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فينتشر الإسلام وترفرف ألويته الخفاقة على شتى البقاع والأصقاع ومختلف الأقطار والأمصار ويجد أناساً يلتفون حوله ويقدرون دعوته ويقدسون رسالته ، بل يجد نفراً من المستشرقين قتلوا الأديان بحثا وتمحيصاً ودراسة وتحليلا ، ثم خرجوا من ذلك بنتيجة طيبة تعزز كلمة المسلمين وتنصر دين الإسلام على العالمين .

ومن هؤلاء المستشرقين الكاتب الإنجليزى المعروف « كارليل » الذى يقول إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوباً فإنه إن كان كذلك فإنه لا يستطيع أن يأتى بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من اللبن إذا لم يكن عليما بمواد البناء على اختلاف أنواعها ، فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الإسلام الذى ظل على قوته وعظمته قروناً طوالا .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضاً الكاتب الإنجليزى المشهور « ه . ج ويلز » الذى قال : إن من أدمغ الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه ويؤمنون به فقد كانوا مطلعين على أسراره ولو شكوا فى صدقه ما آمنوا به .

ويقول « برناردشو » إنى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق

فى العالم أجمع لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير ولحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة .

والواقع أن « برناردشو » إذ ينطق بهذه الشهادة إنما يسجل حقيقة واقعة ، وإنما يرد الحق إلى ذويه ، والقوس إلى باريه ، رغم أننا نعرف عن شو سخريته اللاذعة ، وتهكمه المرير الذى لا ينجو منه شىء حتى الدين !

وقال « فنلى » فى كتابه : « اليونان تحت حكم الرومان » إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم ، وأثبت البلدان قدماً فى القانون مدى أجيـــال طويلة فى شتى نواحى الهيكل الاجتماعى دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كونه مزيج من كفايات ممتازة !

وقال « كارليل » أيضاً : « أتريد دليلا ممن يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبنى لك داراً تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قروناً طويلة لا يعتريها تصدع ولا يعتورها أقل تداع ! ؟ . . كذلك هل يطلب طلب إلى مدعى النبوة دليلا أقوى من أن ينشر ديناً بين ملايين من البشر يستمرون عليه قروناً طويلة ويتحمسون له تحمساً كبيراً ؟ فمحمد قال بأنه رسول من عند الله ، وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين ومضى عليهم فى ذلك قروناً طويلة وهم يحيون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمس . فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟

ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق البنك نوت فالحقيقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح أمرها وتعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق » .

ولقد أثبت المؤتمر الدولى التاسع عشر لمكافحة المسكرات الذى عقد فى مدينة « أنفرس » ببلجيكا منذ سنوات صدق الدعوة المحمدية وحكمة الإسلام فى تحريم الخمر ؛ إذا وقف أحد أعضاء المؤتمر الدولى وقال إن جزيرة إيسلينده — وهى من أشد البلدان برداً — كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطى المشروبات الروحية فكثرت بينهم الوفيات إلى حد أقلق بال ولاة أمورهم فألفوا لجنة

لتبحث فى الأمر وتتعرف أسبابه فأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع إلى أن القوم يستنفدون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر مما تعجل بوفاتهم لانتهاء الحرارة تدريجياً من أجسامهم .

كما نهض عضو آخر من أعضاء هذا المؤتمر وذكر أن الدكتور سكوت ورفاقه حين ذهبوا فى منطاد لارتياد القطب الجنوبى ، أدرك سكوت سوء تأثير الخمر فأوصى أصحابه بألا يشربوا خمراً لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقوى على تحمل البرد إلا أن بعض رفاقه لم يستمعوا إلى نصيحته ، وتجرعوا بعض أقداح من الخمر فكانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت فى مذكراته أن الذين اتبعوا سبيله واجتنبوا شرب الخمر بتاتا نجوا من الموت دون غيرهم .

وهكذا نجد بعض المستشرقين وعلماء الغرب يؤيدون الدعوة المحمدية ، ويقدرون محمداً ودعوته بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولعمرى إن هذا لنصر عظيم للإسلام يحق له أن يتيه بذكره على مر السنين والأيام .

ويحضرنى فى هذا المقام ما ذكره المؤرخ الكبير « جوستاف لوبون » عن القرآن الكريم والدعوة المحمدية «حسب هذا الكتاب جلالة ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التى مرت علية لم تستطيع أن تجحف ولو — بعض الشىء — من أسلوبه الذى لا يزال غضاً كأن عهده وعهد رسالته بالوجود أمس » .

كما يحضرنى كذلك قول العالم الفرنسى « بلانشيه » الذى يقول : « إن الفتى محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى أنه أحيا شعبا وأنشأ امبراطورية وأسس ديناً . . . » .

يحضرنى كذلك قول الشاعر الفرنسى اللامع « الفونس لامارتين » . الذى عرف بحبه للشرق وتعمقه فى الدراسات الشرقيه والإسلامية ، وقد جاء فى حديثه « إن حياة مثل حياة محمد، وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه ، وبأسه فى لقاء مالقيه من عبدة الأوثان ، وإيمانه بالظفر ، وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية . إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل فهو فيلسوف ، زخطيب ،ورسول ومشرع ، وهادى الإنسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا قرينة فيه ولا صور ولا رقيات ومنشىء عشرين دولة فى الأرض

وفاتح دولة واحده فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فأى رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك ، وأى إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل مابلغ » .

ويحضرنى كذلك قول : « طور اندريه ، وجورج مارسيه » فى كتابهما « العالم الشرقى عن محمد صلى الله عليه وسلم » .

« كان محمد زعيما ، وكانت له تلك الفضائل والخلال العظيمة التى يتصف بها كل قائد . كان شجاعاً يخوض المعركة بنفسه ليرد الثبات إلى قلوب الذين يضعفون ، وكان صبوراً يتحمل ضربات القدر فى ثبات ، وكان وفياً مخلصاً فى صداقته ، وكان رحيما بالضعفاء يؤوى فى بيته عدداً كبيراً من المحتاجين ، وكان مع احتفاظه بهيبته كاملة ، بسيط الحركات لا يتكلف شيئاً ، بشوشاً سهل المعاملة ، رفيق الحاشية ، لا يثير غضبه أهل الفضول والسماجة ، وكان محمد رجلا ، وكان فيه ـ لا شك ـ كثير من الخلال التى اتسم بها رجال عصره ، ولكنه حمل إلى هؤلاء الرجال مثلا رفيعا فى الدين والأخلاق سموا به سموا بالغاً عن الآراء القديمة التى كانوا يرزحون تحت ثقلها . وهو إذا جمعهم عصبة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع قد صنع منهم قوه قدر لها ـ فيما بعد ـ أن تهز أركان العالم القديم . . . »

كما وصف الكاتب الفرنسى « إتيان دينيه » مولد الرسول الكريم فى كتابه : « حياه محمد » ولم يغفل إعجابه بالإسلام وتعاليمه حين قال : « ألمح الآن شعاعاً ورديا يتدفق فى الأفق ، والنجوم يبهت لونها ، ويطرق سمعى لحن موسيقى يتردد صداه فى هدأه الليل . الله اكبر لا إله إلا الله ! محمد رسول الله : حى على الصلاه . حى على الفلاح ! » والألحان الأخيرة من هذا النداء الذى يرسله المؤذن ترتفع من المنارات السامقة الرشيقة فوق أعالى البيوت ، وذوائب نخيل الغابة ذاهبة إلى حيث تغنى فى جنبات الصحراء اللانهائية ، وفى كل يوم كلما غيرت الشمس من ألوان ضوئها فى فجرها الأرجوانى ، وفى ظهيرتها المحتدمة ، وفى عصرها المذهب ، وفى مغربها المخضوب بصفرة الحزن على فراقها ، وفى تكفنها أخيرا .. بأوشحة من ظلام الليل يرى المسلمون جميعاً من المحتم عليهم أن يتجردوا من أعمالهم وشواغلهم ـ ليس فقط فى المساجد ـ بل أيضا فى البيوت ، وفى الشوارع والأسواق ، وفى الحقول والصحارى ، وفى كل مكان لكى يمجدوا مفيض الخير جل سناه ... » .

هذه بعض آراء للمستشرقين فى محمد ودين الإسلام ، وأنها لآراء نيرة حصيفة ولعل خير ما نختم به هذه الآراء أن نقول : « وشهد شاهد من أهلها ... » !!